عبد الحميد خطّاب

الغزالي

الاضرع

بين الدّين والفلسفة

المؤسسة الوطنية للكتاب
3 ، شارع زيروت يوسف
الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد :

إن أية محاولة ترمي لبلوغ الأفكار ، وتفهّم روحها ، وتبيّن تعاليم أصحابها واستخراج دلالاتها ، وإدراك معانيها ، واستنباط مذاهبها ، بعيداً عن ظروفها التاريخية ، وبيئتها الاجتماعية ومحيطها الثقافي ، لهي محاولة تنأى بصاحبها عن جادة الصواب ؛ فلا شك أن الفيلسوف ، وإن كان خالقاً للمذاهب الفكرية التي يهتدي بها قومه ، فإنه إلى جانب ذلك ، بل وقبل ذلك ، من خلق البيئة الاجتماعية نفسها ، تلك البيئة التي تجعل الفيلسوف يتشكل بما تحدده له سلفاً من طرق في العيش وأساليب في التعامل وأنماط في التفكير ، ويتأثر بما يسودها من مذاهب كبرى واتجاهات وآراء ونزعات .

وقد قيل ان تراجم العظماء ما هي إلّا خيوط ضمن أنسجة التاريخ الواسعة ، ذلك التاريخ الذي لا بد من أن تخامر روحه روحهم ، وتتوغل إلى أعمق ساحات وعيهم ، وتكمن في خواطرهم ، وتستتر في ضمائرهم ، وتَمْثُلُ من خلال آرائهم وأفكارهم وتعاليمهم .

وعليه ، فإنه لا محيص لنا ـ ونحن نسعى جهد الامكان لتفهم آراء الإمام

الغزالي من الرجوع إلى العصر الذي عاش فيه ، والأوساط التي احتضنته ، والبيئات التي اكتنفته ، كما أنه من المفيد لبحثنا هذا أن يشير إلى ما كان لتلك الأوساط من شأن وأن يجلو أطرافاً من آثارها ما اتسع المجال لذلك .

ـ هذا ، وقد رأينا أن نلج إلى عصر الإمام الغزالي وننظر فيه من خلال النقط التالية :

أ ـ الوصف الطبيعي والنشاط البشري :

أولا ـ البلدان :

(خراسان ـ طوس ـ جرجان ـ نيسابور ـ بغداد ـ دمشق ـ بيت المقدس).

ثانيا ـ النشاط التجاري.

ثالثا ـ النشاط الصناعي.

ب ـ الوصف السياسي :

أولاً ـ السلاجقة والخلافة العباسية .

ثانياً ـ الفاطميون .

جـ ـ الوصف الاقتصادي :

أولاً ـ نظام الملكية والاقطاع .

ثانياً ـ الثروة والاستهلاك .

د ـ الوصف الثقافي :

أولاً ـ المساجد والزباطات .

ثانياً ـ المكتبات .

ثالثاً ـ المدارس .

رابعاً ـ أعيان العصر .

هـ ـ موقف الغزالي من العصر :

أولاً ـ من العلاقات الاجتماعية .

ثانياً ـ من الاتجاهات السائدة .

ثالثاً ـ من الحكام (والناس عامة) .

رابعاً ـ من الحملات الصليبية .

الوصف الطبيعي والنشاط البشري

أولاً : البلدان .

1 ـ خراسان :

إمامنا الغزالي فارسي الأصل ، ولد في خراسان ، بها نشأ ، وفي ربوع أماكنها ترعرع ونما ، وهي إقليم من بلاد فارس ، « وقد كانا شيئاً واحداً لأنهما متحاذيان ومتصلان ، ولسانهما بالفارسية واحد »[1] ، ورقعة خراسان واسعة : « أول حدودها مما يلي العراق أَزَاذْ وَارْقصبة جوين وبيهق ، وآخر حدودها مما يلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان ، وليس ذلك منها وإنما هو أطراف حدودها »[2] ، ويصف لنا المقدسي طبيعة هذه الرقعة من بلاد فارس فيقول : « قرأت في كتاب بخزانة عضد الدولة : خراسان من غذاء الهواء وطيب الماء وصحة التربة وعذوبة الثمر واحكام الصنعة وتمام الخلقة وطول القامة ، وحسن الوجوه وفراهة المركب وجودة السلاح والتجارة والعلم والفقه والدراية ، ترس في

(1) محمد الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار : ص 215 تحقيق إحسان عباس ، طبع دار القلم ، لبنان سنة 1975 .

(2) ياقوت الحموي : معجم البلدان : جـ 2 ، ص 350 ، دار صادر بيروت .

وجوه الترك ـ أشد العدو بـأسـاً وأعـظمهم رقابـاً ، وأصبرهم عـلى البؤس أنفساً وأقلهم تنعماً وخفضاً »[1]

ويحكى عن ابن قتيبة أنه قال : « خراسان أهل الدعوة وأنصار الدولة ، لمّا أتى الله بالإسلام كانوا أحسن الأمم رغبة وأشدهم إليه مسارعة ، منّاً من الله عليهم ، أسلموا طوعاً ودخلوا فيه أفواجاً ، وصالحوا عن بلادهم صلحاً فخفّ خرجُهم وقلّت نوائبهم »[2] .

أما من حيث المذاهب السائدة في خراسان ، فقد جاء قول المقدسي التالي :

« وللمعتزلة ظهور بلا غلبة ، وللشيعة والكرامية جلبة ، والغلبة في الإقليم لأصحاب أبي حنيفة إلاّ في كورة الشاش وإيلات وطوس .. فإنهم شَفْعَوِيَّة كلهم »[3] .

من هنا نعلم أن الغزالي نشأ في بيئة شافعية وكان هو نفسه شافعياً .

وقد كان من عادة أهل خراسان أن يميِّزوا أهل العلم منهم بلباس خاص يُعرفُون به . فقد جاء في أحسن التقاسيم قول المقدسي : « أما الفقهاء والكبراء، فيتطيلسون ولا يتحنَّكون إلاّ من يستحمق ، ولهم لبسة يتفردون بها . في الشتـاء يتلبس أحدهم ويجعل الطيلسان[4] فوق العمائم من خلف ، ثم يلبس من فوق ذلك دراعه ويرخي ما فوق العمامة على طرف الدراعية ، ورأيت جماعة بطوس وأبيورد وهـراة يفعلون ذلك ، وأهل سجستان يكـوِّرون العمائم مثـل التيجان ، ولا يتطيلس بما وراء النهر إلاّ كبير ، إنما هي الأقبية المفتوحة ، وبِمَرْو

(1) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم : ص 294 نشر M.J. de Coeje ، 1906 .
(2) المصدر نفسه : ص 293 .
(3) المصدر نفسه : ص 333 .
(4) جمعه طَيَاليس وطيالسة وهو كساء أخضر يلبسه الخواص من المشايخ والعلمـاء ، وهـو من لباس العجم (المنجد) .

أنصاف العلماء يجعلون الطيالسة على أحد أكتافهم فإذا أرادوا أن يرفعوا فقيهاً أمروه بالتطيلس »[1] .

هذه العادة الطريفة إنْ دلَّت على شيء فإنما تدل على اهتمام أهل البلاد واحترامهم للعلم والعلماء . كيف لا ، وقد اشتهرت خراسان بالعلم الكثير والأدب الوفير، وهذه مسألة جليَّة يقرّ بها كل من أجَالَ النظر في التراث العـربي الاسلامي ، إذ لا يمكن العبور إلى صَميم هذا التراث دون المرور بآثار هذه البلاد ، وما خلفه رجالاتها من كتب ومصنفات وآراء قيمة في مختلف مجالات العلم والأدب ، حتى قال فيهم ياقوت الحموي :

« فأما العلم فهم فرسانه وساداته وأعيانه ، ومن أين لغيرهم مثل محمد بن إسماعيل البخاري ومثل مسلم بن الحجاج القشيري ، وأبي عيسى الترمذي ، وإسحـاق بن راهويه ، وأحمد بن حنبل وأبي حامد الغزالي ، والجويني إمام الحرمين ، والحاكم أبي عبدالله النيسابوري وغيرهم من أهل الحديث والفقه »[2] .

وهذا الاقليم بطبيعته هذه ، وبوفرة علمه وعلمائه مهد ـ لا شك ـ في إيجاد شخصية مثل شخصية الغزالي .

أما المدن التي ضمها هذا الاقليم فهي كثيرة ، ونحن نقتصر على وصف بعضها كالمدن التي انتقل إليها الغزالي ، وتنسم هواءها ، واغتـذى من ثمراتها ، وتأثر بأوساطها ، وتشبعت روحه بقيَمها وعاداتها وأخلاقها ، من هذه المدن مثلاً طوس ونيسابور من إقليم خراسان وجرجان الواقعة بين طبرستان وخراسان .

2 ـ طوس :

وهي مدينة بخراسان ـ بلدة الغزالي وأصله ـ تشتمل على بلدتين ـ يقال

(1) ص : 328 .
(2) معجم البلدان : جـ 2 ، ص 353 .

لاحداهما « الطابران » وبها قبر الغزالي ، وللأخرى « نوقان » وبها قبر هارون الرشيد الخليفة العباسي المشهور، ولهما ما يزيد عن ألف قرية[1] ، ومن هذه القرى التابعة قرية الغزالي المسماة بالغَزالة - والتي ينسب إليها الباحثون عادة لقب الغزالي ، مستندين إلى كتاب السمعاني في « الأنساب » كما سيتضح في حينه .

ومدينة طوس هذه يصفها صاحب « الروض المعطار » فيقول : « هي مدينة كبيرة ، حسنة المباني كثيرة الأسواق ، شاملة الأرزاق ، عامرة الأمكنة ، رائعة الجهات ، ولها مدن بها منابر[2] ". وأراضيها تضم كثيراً من المعادن الهامة : « وبنوقان معدن قدور البرام[3] يحمل منها إلى سائر بلاد خراسان ، وفيها معادن النحاس والحديد والفضة والفيروز والدهنج[4] وغيرها[5] . وهذا يشير إلى أن أهل المدينة على قدر من النهضة الصناعية حين يهتمون باستخراج هذه المعادن ونقلها إلى أمكنة أخرى من البلاد لاستغلالها في مختلف الأغراض .

هذا وما يزال بعض من آثار هذه المدينة باقياً يشير إلى ما كان لها في ماضيها من عراقة ومجد . ففي مطلع هذا القرن ، وبالضبط سنة 1917 م زار أحد القساوسة الأمريكيين - وهو القس « دونالدسن » - بلاد العجم للحصول على صور ومعلومات حول خرائب مدينة طوس هذه ، وحينئذ جاء في تقريره ما يلي : -

« لا تزال أسوار مدينة طوس القديمة باقية حتى اليوم ، وطولها فرسخ ، وهناك بقايا الطوابي[6] وبقايا أبوابها القديمة في تسعة أماكن ، وكان عرض حائط

(1) ابن خلكان : وفيات الأعيان : جـ 1 ، ص 98 ، ومعجم البلدان : جـ 4 ، ص 49 .
(2) الحميري : ص 398 .
(3) بَرام وبُرَم وبُرُم : جمع برمة وهي القدر من الحجر (لسان العرب) .
(4) الدهنج : جوهر كالزمرد (لسان العرب) .
(5) الحميري : الروض المعطار : ص 400 .
(6) هكذا وردت في الترجمة العربية (الغواص واللآلىء) ولم أطلع على مقابلها في النص الأجنبي ، ولعلها من الطوب .

الصور نحو خمس ياردات ، ولا يزال قبر الغزالي باقياً حتى اليوم في المقبرة الكبرى الواقعة في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة، ومع أن الجزء الأكبر منها قد تحول الآن إلى أراض زراعية ، غير أن الجزء المرتفع فيها باق مقبرة حتى اليوم »[1] .

هذا وقد خرج من هذه المدينة - البائدة اليوم - من أئمة العلم والفقه ما لا يحصى[2] .

3 - جرجان :

أما هذه فتقع بين طبرستان وخرسان ، يقول ياقوت : « فبعض يعدها من هذه وبعض يعدها من هذه »[3] . وهي المدينة التي انتقل إليها الغزالي من طوس تلميذاً يطلب العلم على مشايخها . يصفها الاصطخري فيقول :

« أما جرجان فإنها أكبر مدينة بنواحيها ، وهي أقل ندى ومطراً من طبرستان، وأهلها أحسن وقاراً وأكثر مروءة ويساراً من كبرائهم. وليس بالمشرق بعد أن تجاوز العراق مدينة أجمع ولا أظهر حسناً من جرجان على مقدارها »[4] .

والغالب على أعمال جرجان هذه الجبال والقلاع وربما بلغت قلاعها تسعمائة قلعة - حسب الحميري[5] - الذي يصفها وصفاً عاماً شاملاً فيقول : « وجرجان مدينة كبيرة ، والنهر (أي نهر الديلم) - يشق بينهما (بين قسميها) ، ونهرها كثير الماء ، وعليه قنطرة معقودة ، وجرجان اسم المدينة الشرقية واسم الغربية « بكرباذ » ، وهي أصغر من جرجان ، ولها ضياع وبساتين وزرع

(1) أورده المتشرق زويمر في كتابه : الغواص واللآلىء : ص 101 في طبعته العربية الثانية ، القدس 1926 .
(2) معجم البلدان : جـ 4 ، ص 49 .
(3) المصدر نفسه : جـ 2 ، ص 119 .
(4) المصدر نفسه : جـ 2 ، ص 119 .
(5) الروض المعطار : ص 160 .

وعمارات ، وبها كثير من الكروم والتمر والتين والزيتون وقصب السكر وسائر الفواكه »[1] .

4 ـ نيسابور :(*)

وهي أيضاً مدينة جميلة ، كان لها شأن في توجيه فكر الإمام الغزالي وتنويره، تقع هذه المدينة من بلاد خراسان في مستوى من الأرض ، وأبنيتها قديمة مبنية من الطين ، ولها ربض[2] كبير آهل دائر بها ، وبه يقع جامعها ولها قصبة[3] منيعة وأربعة أبواب، ونهر منه يشرب سكانها ويسقون سقايتهم ، وهي قلب لما حولها من البلاد والأقطار[4] يرتفع منها أصناف البز[5] وفاخر الثياب والقطن والقز ما يعم البلاد وتؤثره الملوك وينافس فيه الرؤساء[6] . أما أسواقها فتقع خارجة عن المدينة من الربض ومعظمها سوقان ، سوق يقال لها « المربعة الكبيرة » والأخرى « المربعة الصغيرة » .

تقع خلالها خانات يسكنها التجار للبيع ، يضاهي كل فندق منها سوقاً من أسواق بعض البلدان[7] ـ وقد قال ياقوت بشأنها : « لم أر فيها طوفت من البلاد مدينة كانت مثلها » [8]. هذه المدينة فضلاً عن كونها طافحة بالخيرات المادية التي جعلت منها محط التجار والصناع من سائر البلدان ، وجمالها الطبيعي الذي أهلها

---

(1) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(*) قال ياقوت في تسمية هذه المدينة : « سميت بذلك لأن « سابور » مر بها وفيها قصب كثير فقال : يصلح أن يكون ههنا مدينة ، فقيل لها نيسابور » (معجم البلدان : جـ 5 ، ص 331) .

(2) ربض المدينة : ما حولها ، (مختار الصحاح) .

(3) قصبة القرية : وسطها ، وقصبة السواد : مدينتها (مختار الصحاح) .

(4) الروض المعطار : ص 588 .

(5) البز من الثياب : أمتعة البزاز (مختار الصحاح) .

(6) الروض المعطار : ص 588 .

(7) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(8) معجم البلدان : جـ 5 ، ص 331 .

للفوز بلقب « عروس خراسان »[1] ، فإنها مع ذلك ، معدن الفضلاء ، ومنبع العلماء ، فقد خرج منها من أئمة العلم من لا يحصى ، ذكر منهم ياقوت : الحافظ الإمام : أبا علي الحسين بن علي النيسابوري الصائغ[2] وغيره .

وهناك مدن أخرى ما عدا التي ذكرنا ، كان لها شأن في تكوين العلماء وازدهار الثقافة وانتشارها مثل مدينة « مرو » التي اشتهرت بخزاناتها الكثيرة الكتب ، ومدينة « المعسكر » التي كانت تزخر بالمجالس العلمية في حضرة الوزير نظام الملك والتي ضمت علماء من بينهم إمامنا الغزالي ، فكانت عاملاً من عوامل إبراز شخصيته وتوجيهها كما سيتضح في حينه .

5 ـ بغداد :

وحينما ننتقل من بلاد فارس إلى بلاد العراق الذي أشار المقدسي إلى دورها المهم الذي لعبته في الحياة الثقافية الاسلامية فقال : « أخرج أبا حنيفة فقيه الفقهاء وسفيان سيد القراء ، ومنه أبو عبيدة والفراء ، وأبو عمر صاحب المعراء ، وحمزة والكسائي ، وكل فقيه ومقرىء وأديب وسري وحكيم وزاهد ونجيب وظريف ولبيب »[3] ، أقول ، نجد بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، ذات الأثر في حياة الغزالي الروحية .

وقد ذكر المؤرخون[4] أسباباً عدة لترجيح المنصور ، الخليفة العباسي ، هذه البقعة من العراق على غيرها ، منها اقتصاديةوعسكرية وسياسية وصحية والأرجح أنها روعيت جملة ، وأهمية بغداد تتضح من أنها تقع بين نهرين

---

(1) الروض المعطار : ص 588 .

(2) معجم البلدان : جـ 5 ، ص 332 .

(3) أحسن التقاسيم : ص 113 .

(4) جاء في المصدر السابق ، ص 121 ، قول المقدسي بخصوص مشروع بناء بغداد : « ذكر الشمشاطي في تاريخه أن المنصور لما أراد بناء مدينة السلام أحضر أكبر من عرف من أهل الفقه والعدالة والأمانة والمعرفة بالهندسة ، وكان فيهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت والحجاج بن أرطاة » .

كبيرين يتيحان لها أوفر الخيرات المادية فتأتيها السلع من الفرات ودجلة ، وموقعها بين نهرين يُيَسِّر لها جني ميرة[1] الموصل وديار بكر وربيعة في دجلة ، والعدو لا يصلها إلا على جسر أو قنطرة ، فإذا قطعت الجسور ، ونسفت القناطر لم يصل إليها[2] ، وهي قريبة من البحر والجبل وتقع في أقرب نقطة بين دجلة والفرات ووسط بين العرب والعجم ، ثم أن العباسيين الذين قامت دولتهم على سيوف الفرس يحلو لهم أن يجعلوا عاصمتهم على مقربة من المدائن عاصمة العجم[3]. أما أهمية النهرين في التجارة وما يتيحانه من ازدهار مادي فيعبر عنه قول أحمد بن أبي يعقوب صاحب كتاب البلدان القائل : « يجري في حافتيها ـ أي بغداد ـ النهران الأعظمان الدجلة والفرات ، فتأتيها التجارات والميرة براً وبحراً بأيسر سعر حتى تكامل فيها كل متجر من المشرق والمغرب من أرض الاسلام ومن غير أرض الاسلام ؛ فإنه يحمل إليها من الهند والسند والصين والتبت والترك والديلم والخزر والحبشة وسائر البلدان القاصية والدانية حتى يكون بها من التجارات أكثر مما في البلدان التي خرجت التجارات منها إليها »[4] .

وبعد ، فإن بغداد عاصمة الخلافة العباسية وتاريخها هو تاريخ الخلافة العباسية إلى ما بعد عهد الغزالي ، وكل أثر لهذه الدولة العباسية في توجيه الأحداث وتكييفها لا بد أن ينسب إلى هذه المدينة ويتصل بها وبتاريخها . ومدينة مثل هذه في الأهمية لا يمكن إلا أن تكون غاصة بالسكان ـ عاجة بالزائرين والمتجولين في مسالكها ودروبها وطرقها وأسواقها ، تزدحم بالقادمين من ذوي الأغراض والمآرب المختلفة ، ذلك أن « كل جيّد بها وكل حسن فيها وكل حاذق

(1) الميز الخير ، وفي مختار الصحاح : الميرة الطعام يختاره الانسان .. ومنه قولهم : ما عنده خير ولا مير .
(2) معجم البلدان : جـ 1 ، ص 458 .
(3) طه الراوي : بغداد مدينة السلام ، ص 10 (دار المعارف) .
(4) نقلاً عن الحميري ، الروض المعطار : ص 111 .

منها وكل ظرف لها وكل قلب إليها »[1] ويروي ياقوت الحموي عن عبدالملك بن صالح بن عبدالله بن عباس حين قدم بغداد وهاله ما رأى من كثرة الناس بها قوله : « ما مررت بطريق من طرق هذه المدينة إلّا ظننت أن الناس قد نُودِيَ فيهم »[2] ، ومن الطبيعي إذاً أن تتسع الدروب والسكك وتكثر المرافق العامة كالأسواق والمساجد والحمامات وغيرها . بحيث تفي بحاجات الجمهور الواسع الذي تحتضنه هذه المدينة إذ ذاك ، والخطيب البغدادي ، وهو أحد رجال بغداد وعلمائها البارزين في القرن الخامس الهجري ، يشهد على ذلك فيقول : « الدروب والسكك ببغداد أُحصيت فكانت ستة آلاف درب وسكة بالجانب الغربي ـ (من شاطىء دجلة) ـ وأربعة آلاف درب وسكة بالجانب الشرقي »[3] . أما الحميري فيقول : « وأحصيت المساجد فكانت ثلاثين ألف مسجد سوى ما زاد بعد ذلك ، وأحصيت الحمامات عشرين ألف حمام »[4] .

ويقع في بغداد سوق يسمى سوق الكرخ ويلقب بالسوق العظمى ، ويتفرع منه عدة أسواق فتتنوع تبعاً لذلك التجارات وكثرة الشوارع ، فكل تجارة لها شوارع معلومة فيها حوانيت ولا يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة . أما الورّاقون أصحاب الكتب فإن به أكثر من مائة حانوت ، والحوانيت التجارية لا تنقطع صيفاً ولا شتاء .

وقد عمل فيها ما يعمل في بلد من البلدان لأن حذاق أهل الصناعات انتقلوا إليها من كل بلد وأتوها من كل أفق ونزعوا إليها من الأداني والأقاصي[5] ، لذلك يجمل الخطيب البغدادي الوصف فيقول : « لم يكن من بغداد في الدنيا نظير في جلال قدرها وفخامة أمرها ، وكثرة دورها ومنازلها

(1) المقدسي : أحسن التقاسيم : ص 119 .
(2) معجم البلدان : جـ 1 ، ص 462 .
(3) تاريخ بغداد : جـ 1 ، ص 98 ، مطبعة السعادة ، مصر 1931 م .
(4) الروض المعطار : ص 112 .
(5) الروض المعطار : هي 112 .

ودروبها وشعوبها ومحلها وأسواقها وسككها وأزقتها ومساجدها وحماماتها وطرزها وخاناتها وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد ظلالها وأفيائها واعتدال صيفها وشتائها وصحة ربيعها وخريفها وزيادة ما حصر من عدة سكانها »[1] .

لا ريب أن هذا الاعتدال المناخي اللطيف قد انعكس أثره إيجاباً على أهل بغداد كما يقول الحميري : « باعتدال الهواء وطيب الثرى وعذوبة الماء ، حسنت أخلاق أهلها ونضرت وجوههم ، وانفتقت أذهانهم حتى فضلوا الناس في العلم والفهم والنظر والتمييز والتجارات والحذق بكل مناظرة واحكام كل مهنة واتقان كل صنعة »[2] . حتى أن ابن العميد كما يروي ياقوت كان : « إذا طرأ عليه أحد من منتحلي العلوم والآداب وأراد امتحان عقله ، سأله عن بغداد ، فإن فطن بخواصها ، وتنبه على محاسنها وأثنى عليها ، جعل ذلك مقدمة فضله وعنوان عقله »[3] .

هذا ما كان من شأن بغداد فيما هو مذكور في المصادر العربية ، ونحن إذ نأتي على ختام القول فيها يطيب لنا أن نثبت وصفاً أجنبياً لها من قبل زائر أجنبي يدعى « الحاخام بنيامين » المولود بطوليو ـ وقد قام بزيارته لبغداد بعد وفاة الغزالي بحوالي نصف قرن وبالضبط سنة 1160 م ، وهذا وصفه لها :

« يبلغ محيط مدينة بغداد ثلاثة أميال ، وأرضها غنية بالنخيل وبالحدائق الفيحاء فلا تجاريها في جمالها بقعة أخرى فيما بين النهرين ، يؤمها التجار من كل الأصقاع ويقطنها علماء كثيرون وسحرة قادرون[4] ، وساحة قصر الخليفة ثلاثة

---

(1) تاريخ بغداد : جـ 1 ، ص 119 .

(2) الروض المعطار : ص 111 .

(3) معجم البلدان : جـ 1 ، ص 461 .

(4) يذكر ابن الجوزي في حوادث (501 هـ) ما يلي : « ظهرت في هذه السنة صبية عمياء تتكلم في أسرار الناس وبالغ الناس لعلم حالها فلم يعلموا ، قال ابن عقيل : وأشكل أمرها على العلماء والخواص حتى أنها كانت تسأل عن نقوش الخواتيم وما عليها وألوان الفصوص وصفات=

أميال ، به بستان فيه من كل فاكهة زوجان ، ومن كل أنواع الحيوان ، يجري فيه الماء من نهر دجلة وكلما رغب الخليفة في التنزه كان المدام والطيور والأسماك واللحوم تحت أمره وأمر مرشديه الذين كان يدعوهم لمشاركته »[1] .

وأما من حيث المذاهب السائدة في بغداد فإن المقدسي يذكرها ضمن ذكر بلاد العراق عامة فيقول : « به ـ (أي بلاد العراق) ـ عدة من المذاهب ، الغلبة ببغداد للحنابلة والشيعة . . وبه مالكية وأشعرية ومعتزلة وبخارية ، وبالكوفة الشيعة إلا الكناسة فإنها سُنَّة ، وبالبصرة مجالس وعوام السالمية وهم قوم يدعون الكلام والزهد . . .

وأكثر أهل البصرة قدرية وشيعة وثم حنابلة ، وببغداد غالية يفرطون في حب معاوية ومشبهة وبربهارية »[2] .

6 ـ دمشق :

وهي المدينة التي انتقل إليها الغزالي من بغداد وأقام بها مدة من الزمن طويلة . يصفها المقدسي فيقول : « دمشق هي مصر الشام ودار الملك أيام بني أميَّة وثَمَّ قصورهم وآثارهم ، بنيانهم خشب وطين ، وعليها حصن أُحْدِثَ ، وأَنابه ، من طين ، وأكثر أسواقها مغطاة ولهم سوق على طول البلد مكشوف حسن ، وهو بلد قد خرقته الأنهار ، وأحدقت به الأشجار ، وكثرت به الثمار ،

= الأشخاص وما في دواخل البنادق من الشمع والطين من الحب المختلف والخرز » . (المنتظم : جـ 9 ، ص 157 ، دار المعارف العثمانية 1359 هـ) .

كما يذكر ابن الأثير في حوادث (439 هـ) ما يلي : « وفي هذه السنة ظهر الأصفر التغلبي وادعى أنه من المذكورين في الكتب ، واستغوى قوماً بمخاريق وصفها . . وتسامع الناس به فقصدوه ، وكثر جمعه واشتدت شوكته » (الكامل : جـ 9 ، ص 225 ، المطبعة الأزهرية المصرية سنة 1301 هـ) .

(1) أورده زويمر في كتابه : « الغواص واللآلىء » ص 65 .

(2) أحسن التقاسيم : ص 126 .

مع رخص أسعار ، وثلج وأضداد لا ترى أحسن من حماماتها ، ولا أعجب من فواراتها ولا أحزم من أهلها »[1] .

أما ياقوت فيصفها بقوله : « وهي في أرضٍ مستوية تحيط بها من جميع جهاتها الجبال الشاهقة ، وبها جبل قاسيون ليس في موضع من المواضع أكثر من العباد الذين فيه . وبها مغاور كثيرة وكهوف وآثار للأنبياء والصالحين لا توجد في غيرها ، وبها فواكه جيدة فائقة طيبة تُحملُ إلى جميع ما حولها من البلاد . . . وجملة الأمر أنه لا توصف الجنة بشيء إلاّ وفي دمشق مثله »[2] . أما الحميري فيقول :

« وبالبلد نحو عشرين مدرسة ومارستانان أحدهما جارية في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً ، وله قَوَمَةٌ برسم المرضى والنفقة التي يحتاجون إليها من الأدوية والأغذية ، والأطباء يبكرون إليه كل يوم ويأمرون باعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية ، وفيه مجانين معتقلون لهم ما يخصهم من العلاج . . أما رباطات الصوفية التي يسمونها « الخوانق » فكثيرة ، وهي قصور مزخرفة في جميعها الماء يطرد ، وهناك ديار موقوفة لقراءة كتاب الله تعالى يسكنونها ومرافق الغرباء أكثر في البلد من أن تحصى . . .

- (ويضيف قائلاً) - . . دمشق جامعة لصنوف المحاسن ، وضروب الصناعات وأنواع الثياب الحريري كالخز والديباج النفيس ، ويتجهز به إلى جملة الآفاق .

وفي داخل دمشق على أوديتها آثار أرحاء كثيرة جداً ، وبها من الحلاوات ما لا يوجد بغيرها ، وأهلها في خصب أبداً ، وهي أعز البلاد الشامية وأكملها حسناً »[3] .

(1) المصدر نفسه ، ص 157 .
(2) معجم البلدان : جـ 2 ، ص 465 .
(3) الروض المعطار : 240 .

أما جامعها الأموي الشهير الذي تعبَّد فيه الغزالي وتلميذه الشهير محمد بن تومرت ، فقد وصفه بعض أهل دمشق ، فقال : « هو جامع المحاسن ، كامل الغرائب - معدود احدى العجائب ، قد زُوِّر بعضُ فرشه بالرخام وأُلِّف على أحسن تركيب ونظام »[1] .

وكثرة الرسوم به وجمالها قد رفعت بالمقدسي إلى القول : « ولو أن رجلاً من أهل الحكمة اختلف إليه سنة لأفاد منه كل يوم صيغة وعقدة أخرى »[2] .

وقد كانت دمشق في عهد السلاجقة تزخر بمئات المساجد ، غير أن المسجد الأموي هو الوحيد الذي كانت تقام فيه صلاة الجمعة جرياً على العادة التي كانت متبعة من أن الخطبة يلقيها أمير المؤمنين في مسجد واحد من كل مصر[3] .

وبالجملة : فإن أهمية موقع دمشق الجغرافي ، وكونها عقدة للمواصلات بين الشرق والغرب ، والجنوب والشمال وملتقى القوافل ، كان لهذا كله أثر في اقبال الناس عليها من التجار والحجاج والعلماء وطالبي المعرفة من قراء ومحدثين ومفسرين وفقهاء ، بالاضافة إلى كونها ملجأ للزهاد والمتعبدين لِمَا اشتهرت به من المرافق الكثيرة التي تنفق على هؤلاء انفاقاً حسناً .

7 - بيت المقدس :

وهي بلدة لها مكانة خاصة عند المسلمين ، وقد اتجه إليها الغزالي أثناء رحلته الصوفية ، تمتاز باعتدال هوائها : يقول ياقوت نقلاً عن المقدسي « إنها بلدة جمعت الدنيا والآخرة ، فمن كان من أبناء الدنيا وأراد الآخرة وجد سوقها ومن كان من أبناء الآخرة فدعته نفسه إلى نعمة الدنيا وجدها . وأمّا طيب

(1) معجم البلدان ، جـ 2 ، 465 .
(2) أحسن التقاسيم : ص 158 .
(3) خالد معاذ : دمشق أيام الغزالي : ضمن مهرجان الغزالي : ص 487 .

هوائها فإنه لا سم لبردها ولا أذى لحرها ، وأما الحسن فلا يرى أحسن من بنيانها ولا أنظف منها ولا أنزه من مسجدها . وأما الخيرات فقد جمع الله فيها فواكه الأغوار والسهل والجبل والأشياء المتضادة »[1] . ويخبرنا المقدسي وهو من أبناء هذه المدينة عن أحوال أهلها فيقول : « قليلة العلماء كثيرة النصارى ، وفيهم جفاء على الرحبة ، والفنادق ضرائب ثقال وعلى ما يباع فيها ، رجّالة على الأبواب ، فلا يمكن أحداً (هكذا وردت) أن يبيع شيئاً مما يرتفق به الناس إلا بها ، مع قلة يسار ، وليس للمظلوم أنصار ، والمستور مهموم والغبي محسود ، والفقيه مهجور ، والأديب غير مشهود ، لا مجلس نظر ولا تدريس ، قد غلب عليها النصارى واليهود وخلا المسجد من الجماعات والمجالس وهي أصغر من مكة وأكبر من المدينة »[2] .

ثانياً ـ مراكز التجارة والمواصلات :

عرف المسلمون أهمية التجارة وما تجنيه من أرباح وما يتيحه نشاطها من معارف واطلاع على البلاد الأجنبية فمارسوها واشتهروا بها وتركوا آثارهم في البلاد الأجنبية التي انتقلوا إليها كما تأثروا هم أيضاً بواقع هذه البلاد وأهلها .

فقد كان اتصال المسلمين بالهند من خلال ثلاث طرق أساسية ، احداها برية واثنتان بحريتان ، أما البرية فتصل أهم مراكز الشرق كدمشق وسمرقند وبغداد وذلك بواسطة القوافل المارة ببلاد فارس وكشمير ، أما التجار الذين يسلكون الطريق البحري فإنهم يتصلون بالهند انطلاقاً من موانىء الخليج العربي ، والسلع التي تصل إلى هذه المراكز تُرسل إلى بغداد ، ومنه إلى جميع المدن المجاورة بواسطة القوافل ، كما كان البحر الأبيض المتوسط يتيح لهم الاتصال بشمال افريقيا والأندلس وأوروبا ، ولم يقتصر اتصال المسلمين على هذه

(1) معجم البلدان : جـ 5 ، ص 169 .
(2) أحسن التقاسيم : ص 167 .

المراكز بل كانوا يقومون برحلات متواصلة إلى بلاد الصين ، يقول غوستاف لوبون :

« إن كثرة صلات العرب بأهل الصين أمر ثابت من تبادل الوفود بين الخلفاء وملوك الصين فضلاً عما هو مسطور في سجلات بيت مال الخلفاء من بيان للسلع الصينية »[1] .

وقد قال المقدسي : « وبتجارات الصين تضرب الأمثال »[2] .

أما زويمر فقد أشار إلى هذا الواقع الثابت بقوله : « وقد ظهر مؤلف مكتوب باللغة الصينية في القرن الثاني عشر (الميلادي) عن التجارة مع العرب ، وقد نشرت ترجمته حديثاً في مدينة لينينغراد »[3] أما بالنسبة لاتصال المسلمين بأوروبا في عصر الغزالي فيقول : « إنه قد عثر في اسكندنافيا على ألوف من قطع النقود الكوفية يرجع تاريخها إلى القرن الحادي عشر (الميلادي) مما يدلنا على أن هذا الصقع النائي من أوروبا كان على اتصال مع الشرق الأدنى »[4] .

كما كان التجار العرب الأندلسيون والتجار العرب في المشرق ، في مصر والعراق وفارس على حلقات اتصال مستمر ، وكان الكبار منهم يعملون الحيل للاتصال بملوك الأقطار لتسهيل معاملاتهم التجارية وتصريف بضائعهم[5] .

وقد ذكرنا كيف كانت بغداد مركزاً تجارياً هاماً ترتبط بمراكز خارجية مختلفة ، وكيف « يحمل إليها من الهند والسند والصين والتبت والترك والديلم

(1) حضارة العرب : ص 662 من الترجمة العربية لعادل زعيتر ، طبعة ثانية دار احياء الكتب العربية سنة 1948 .
(2) أحسن التقاسيم : ص 97 .
(3) الغواص واللالىء : ص 16 .
(4) المصدر نفسه والصفحة نفسها .
(5) انظر : ظهر الاسلام : جـ 2 ، ص 214 .

والخزر والحبشة وسائر البلدان القاصية والدانية »[1] .

إن هذا النشاط التجاري الواسع ، قد وسع من أفق الناس وأتاح لهم الاطلاع على منتوجات غيرهم من الأقوام فضلاً عن التعرف على أخلاق وعادات جديدة وأفكار مختلفة ومصنفات متنوعة ، وقلما كان يخلو ركب من التجار من أن يصحبهم بعض العلماء لطلب العلم وخصوصاً الحديث، كما أن أعمال التجار وما يصادفونه في حياتهم كانت مبعث أسئلة توجه الفقهاء ليبحثوها ويجيبوا عنها ، يقول أحمد أمين : « تعرضت رحلة التجار لاثارة مسائل تتعلق بالعبادات فإنهم لما رحلوا إلى الشمال البعيد ، ورأوا مدناً تستمر الشمس طالعة فيها أشهراً وتغيب أشهراً سألوا عن حكم الصيام في هذه البلاد وأوقات الصلوات وهكذا »[2] .

ثالثاً ـ الصناعة :

أما الصناعة فقد ازدهرت في هذا العصر وقبله بفضل تقدم العلوم[3] واتسع نطاقها ، فأنشئت مصانع للنسيج الحريرية في أماكن مختلفة[4] من مصر والشام والعراق وفارس وقد كانت المدن الكبرى إذ ذاك تقتسم الصناعات الكبرى ؛ فصناعة المنسوجات والورق في مصر وسمرقند ، والبسط والسجاجيد في فارس، واشتهرت مدينة مرو الفارسية بصناعة نسيج القطن فكانت تنتج ملابس ثقيلة ، كما اشتهرت في فارس أيضاً مدينة نيسابور بصناعة الملابس

(1) الروض المعطار : ص 111 .
(2) ظهر الاسلام : جـ 2 ، ص 243 .
(3) عن استغلال مبادىء العلوم ـ لا سيما الحسابية والهندسية ـ في الصناعة يعطينا الغزالي أنموذجاً في : « صندوق الساعات التي بها تتعرف أوقات الصلوات » ولضيق المجال لذكر الاقتباس كاملاً نحيل إليه من يريد الاطلاع إلى : « كتاب الأربعين في أصول الدين » ، ص 15 ـ 16 مطبعة كردستان العلمية ، مصر سنة 1328 هـ .
(4) غوستاف لوبون : حضارة العرب : ص 227 من الترجمة العربية .

المختلفة ، يقول المقدسي : « ترتفع من نيسابور ثياب البيض الخفية والبيباق والعمائم الشهجانية الخفية والرخاتج والتخاتج والمقانع وبين الثوبين والملاحم بالقز والمصمت العتابي والسعيدي والظرائفي والمشطي ، والحلل وثياب الشعر والغزل »[1] . أما بالنسبة لبلاد العراق فيقول : « ألم تسمع بخزِّ البصرة وبزها وطرائفها . . وبها يصنع الراسخت والزنجفر والزنجار والمراد أسنج . . . وبالابلّة تعمل ثياب الكتان الرقيقة على عمل القصب ، وبالكوفة عمائم للخز . . وبمدينة السلام الطرائف وألوان ثياب القز وغير ذلك . ويصنع بالنعمانية أكسية وثياب صوف علسلية حسنة »[2] كما انتشرت صناعة الورق في دمشق ولولا كثرته ما انتشرت العلوم في هذا العصر[3] ، أما بغداد فقد رأيت كيف انتشرت فيها الدكاكين التجارية والمحلات الصناعية ، وكيف قدم إليها ذوو الخبرة من كل الأصقاع ،لذلك اشتهرت حتى قبل عصر الغزالي ، بكثرة صناعاتها وتنوع منتوجاتها ، وتوفر سلعها المحلية والأجنبية ، حتى عدَّ أهلُ العراق ذلك مَصْدَرَ فخرٍ لهم واعتزازٍ ؛ فقد جاء على لسان عراقي يفاخر أهل مصر قوله : « رؤساء مصر وسواسها وكتاب أعمالها وأربابها يتطلع أعظمهم قدراً إلى قوافل الحج ووفود المجهزين من بغداد حتى يستصحب لهم الخفاف الطائية والنعال السندية ، والمقاريض الدينية ، والأمشاط الطاهرية ، والسكاكين الكنانية ، وكثيراً مما يصنع من الأبنوس والعاج والعام الموجود من العطر والزجاج ، فما ظنك بما لا تتهيأ حمله ، ولا يسهل تجهيزه أو نقله »[4] .

خاتمة :

مما سلف يتبين كيف كانت التجارة والصناعة متعاونتين تمد كلتاهما

(1) أحسن التقاسيم : ص 323 .
(2) المصدر نفسه : ص 138 .
(3) أحمد أمين : ظهر الاسلام : جـ 2 ، ص 244 ـ 246 .
(4) ابن الفقيه الهمداني : « بغداد مدينة السلام » ، ص 73 ، تحقيق صالح أحمد العلي ، دار الطليعة باريس 1977 .

الأخرى وتسندها ، فبالاضافة لأهمية العامل الطبيعي كالمناخ وتنوعه بحسب كل اقليم، والموقع الجغرافي، وكثرة الطرق البرية والبحرية ، كان العامل الانساني ذا شأن ؛ فقد استخدم المسلمون قبل عصر الغزالي ما اقتبسوه من اليونان والأمم الأخرى كالروم وأهل الصين والهند، وما اكتشفوا من العلوم على اختلافها في تطوير وسائل صناعاتهم وترقيتها ، كما عرفوا الطاقة الهوائية والطاقة المائية واكتشفوا حركتها في المد والجزر ، فأقاموا الأرحية على أفواه الأنهار ، واستغلوها في إدارة المطاحن وغيرها ، وقد لاحظ الحميري مثل هذه الظاهرة في مدينة دمشق حيث قال :

« وفي داخل دمشق على أوديتها آثار أرحاء كثيرة جداً »[1] وحسبنا دليلاً على الاكتشافات العلمية الهامة التي أمكن استغلالها عملياً ، والتي توفرت في عصر الغزالي ـ مكتشفات أبي الريحان البيروني في القرن الرابع الهجري الذي وضع كما يشير محمد الصالح الصديق[2] أساس علم المثلثات وابتكر كثيراً من طرق الحل لمسائل هندسية ، ووضع جهازاً يمثل حركات الشمس والقمر، وشرح القوانين المائية التي تحكم العيون والآبار التي ندعوها اليوم بالارتوازية ، وشرح بعض حالات شذوذ الخلقة من النبات والحيوان بما فيها حالة التوائم الملتصقة ، وتعرض لشرح ظاهرة الزوجية في عدد أوراق الزهور ، واضطلع بتحديد الثقل النوعي لعدد من المعادن والأحجار تحديداً دقيقاً لا يكاد يذكر الفرق بينه وبين التحديد الحديث ، واستعمل في تجاربه العلمية لاستخراج الثقل النوعي آلته المخروطية التي صنعها بنفسه .

---

(1) الروض المعطار : ص 240 .

(2) وقفات ونبضات : ص 47 ـ 48 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر 1972 .

الوصف السياسي

أولاً ـ السلاجقة والخلافة العباسية :

قامت في العراق الدولة العباسية ، وأصبحت بغداد قبلة العالم الاسلامي وترعرعت فيها الآداب والعلوم والفنون وشيدت فيها المساجد والمدارس والمكتبات والمستشفيات وبنيت القصور ، وازدهرت فيها الحدائق والبساتين ، وسرعان ما تدخل الغرباء في الجهاز الحكومي العباسي ، وتسنموا المناصب الكبيرة ، وأخذوا يسعون للاستحواذ على السلطة وتجريد الخلافة من امتيازاتها وخصائصها ، وبذلك وقعت تحت وطأة النفوذ التركي بعد خلافة المعتصم الذي اعتمد على الأتراك وأدخلهم في الجيش العباسي حتى ازدروا الخلفاء أنفسهم واستهتروا في الحكم وأوغلوا في العمل على اضعاف الدولة ، وحينئذ برزت قوة البويهيين في المشرق وتقدمت جحافلهم إلى العراق على زمن الخليفة المستكفي بالله ، وكان دخولهم بغداد نقطة تحول كبير في سياسة الدولة العباسية سنة 334 [1] هـ . وفي سنة 477 هـ[2] دخل السلاجقة بغداد وحكموا العراق وأزالوا الحكم البويهي الشيعي، وانتزعوا الحكم من سلطانهم محمد بن سبكتكين ، وقد سوغ السلاجقة بزعامة قائدهم طغرلبك[3] عملهم هذا وإغارتهم على أرض الخلافة أنهم لما وجدوا « ابن يمين الدولة » وهو سبكتكين[4] هذا : « مائلاً عن الخير والسمو ، مشتغلاً بالشر والعتو ، غاروا للمسلمين والبلاد وهم عبيد أمير المؤمنين في حفظ البلاد والعباد ، وقد سنوا سنة العدل ،

---

(1) د . حسين أمين : تاريخ العراق في العصر السلجوقي : ص 6 ، منشورات المكتبة الأهلية ، مطبعة الارشاد 1965 .

(2) ابن خلكان : وفيات الأعيان : جـ 5 ، ص 66 ، تحقيق احسان عباس ، طبع دار الثقافة بيروت .

(3) هو أبو طالب محمد بن ميكائيل سلجوق بن دقاق الملقب ركن الدين .

(4) يمين الدولة : هو محمود بن سبكتكين أبو القاسم ، كان يلقب قبل السلطنة سيف الدولة ، وأما بعدها فلقب « بيمين الدولة » : طبقات الشافعية : جـ 5 ، ص 315 (القاهرة 1967) .

وأسنو سنا الفضل ، وأبطلوا مراسم العسف وعطلوا مواسم الحيف »[1] .

هذا وقد اشتهر القرن الخامس الهجري من تاريخ الحضارة العربية الاسلامية بحدثين بارزين كما يشير الأستاذ غوستاف لوبون[2] ـ الحدث الأول ظهور السلاجقة ، أما الثاني فالحملات الصليبية . من هنا يبرز أهمية الدور المناط بالسلاجقة في توجيه الأحداث التاريخية وتكييفها ، خاصة ونحن نهتم بشخصية مثل شخصية الغزالي عاشت في ظل هذه الأسرة وعاصرت هذه الأحداث وتفاعلت معها ، وهؤلاء السلاجقة هم قبائل تركية هاجرت من أواسط آسيا بزعامة سلجوق بك إلى ما وراء السند ثم إلى خراسان[3] حيث تأثرت باحتكاكها المدنيّة والثقافة العربية الاسلامية ، واعتنقت الدين الاسلامي حتى أصبحت شديدة التمسك به تدافع عنه بحرارة وحماسة ، وحينما وصلت إلى العراق استقرت وأصبحت القوة المسيطرة ، فامتد سلطانها في عهد ملكشاه (447 ـ 485 هـ) من أقصى بلاد الترك إلى بلاد اليمن[4] وخضعت له : « جميع بلاد ما وراء النهر وبلاد الهياطلة وباب الأبواب والروم ودياربكر والجزيرة والشام وخطب له على جميع منابر بلاد الاسلام سوى المغرب »[5] . وهكذا أصبح السلاجقة حاكمين فعليين ، أما سلطة الخلافة العباسية ، فقد تضاءلت وانحسرت أمام سطوتهم ، ولم يبق للخليفة إلا المظهر في الحكم ، يقول ابن خلدون : « وتعطل رسم الخلافة ولم يكن لأولئك المتغلبين ـ يعني السلاجقة ـ أن ينتحلوا ألقاب الخلافة ، واستنكفوا عن مشاركة الوزراء في اللقلب لأنهم خول لهم ، فتسموا بالامارة والسلطان ، وكان المستبد على الدولة يسمى أمير الأمراء أو بالسلطان »[6] .

(1) العماد الأصفهاني : دولة آل سلجوق : منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت 1978 .
(2) حضارة العرب : ص 179 من الترجمة العربية .
(3) وفيات الأعيان : جـ 5 ، ص 64 .
(4) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك : جـ 1 ، ص 33 ، دار الكتب المصرية القاهرة 1934 .
(5) وفيات الأعيان : جـ 5 ، ص 84 .
(6) المقدمة : ص 423 ـ دار الكتاب اللبناني ، لبنان 1961 .

وقد أسس السلاجقة حكمهم بما يناسب روح العصر . فقد رأوا أن حكمهم مستمد من الله ، وقد ذكر نظام الملك وهو وزير السلاجقة في كتابه « سياسة نامة » بأن الله قد اختار السلطان ، وميزه على عباده ، وجعلهم خاضعين له ، منه يستمدون نفوذهم ودرجاتهم ، أما هو فيستمد قوته من ربه الذي جعله أميناً على عباده[1] كما نجد الغزالي يعبر عن مثل هذا الموقف وذلك في كتابه « التبر المسبوك في نصيحة الملوك » الذي يخاطب فيه السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه بقوله : « السلطان ظل الله في أرضه ، فينبغي أن يعلم أن من أعطاه الله درجة الملوك ، وجعله ظله في الأرض ، فإنه يجب على الخلق محبته ، ويلزمهم متابعته وطاعته »[2] . ولعل التأييد الذي حظي به السلاجقة حتى من العلماء أمثال الغزالي معناه في نظر المسلمين غلبة المذهب السني في جميع الأراضي التي امتد إليها سلطانهم على المذاهب الشيعية التي كانت تمكّن لنفسها شيئاً فشيئاً في عهد البويهيين ومن ثم في الاتجاه الفاطمي بمصر .

ونظراً لخطر هذه المذاهب على الحكم السلجوقي ذي الاتجاه السني ، فقد جعل السلاجقة من الخليفة إمَاماً سُنيّاً يحاربون به الامامة الفاطمية ، فتحالفوا معه ودافعوا عنه بحد السيف ، واعتبروا الخضوع لحكمهم خضوعاً للخليفة نفسه باعتباره امام السنة والجماعة وكل خروج عن ذلك فهو غواية وضلال ، كما نجد الخليفة نفسه يعبر عن هذا الموقف ، فقد قال الخليفة العباسي القائم بأمر الله : « نحن بنو العباس خير الناس ، فينا الامامة والزعامة إلى يوم القيامة ، من تمسك بنا رشد وهدى ومن ناوأنا ضل وغوى »[3] فالإمامة بهذا الاعتبار خلافة سياسية تستمد مسوغاتها من الدين وسلطتها من الله ، لذلك لجأ السلاجقة ومن يرى فيهم رمزاً للسنة إلى اشهار اسم « الخليفة » في وجه الأطماع السياسية الفاطمية كما يشهر اسم « الامام » ، وهو الوجه الديني للخليفة ، في

(1) انظر : تاريخ العراق في العصر السلجوقي : للدكتور حسين أمين ، ص 180 .
(2) ص 45 ، شركة الطباعة الفنية المتحدة ، مصر 1967 .
(3) دولة آل سلجوق : ص 22 .

وجه الاضطرابات والفتن والانقسامات الداخلية والغزالي يشير إلى هذا فيقول : « إن الثمرة المطلوبة من الامامة تطفئة الفتن الثائرة في تفرق الآراء المتنافرة »[1] .

ثانياً ـ الفاطميون :

أسس الفاطميون بمصر حكمهم ، وأقاموه على دعائم تخالف ما كان عليه أهل السنة سواء في مصر نفسها أو في العراق مستندين إلى المذهب الشيعي القائل بعصمة الأئمة ورجعتهم[2] وإلى ممارسة شعائره الظاهرة المخالفة لشعائر السنة كالآذان بحي على خير العمل ، والاحتفاء بعاشوراء وعيد الغدير[3] ، ويخبرنا المقدسي عن تفصيل مذاهبهم فيقول : « مذاهب الفاطمي وهي ثلاثة أقسام :

1 ـ أحدها ما اختلف فيه الأئمة مثل القنوت في الفجر والجهر بالبسملة والوتر بركعة وما أشبه ذلك .

2 ـ والثاني الرجوع إلى ما كان عليه السلف مثل الاقامة مثنى التي ردها بنو أمية إلى واحدة ومثل لبس البياض الذي ردّه بنو العباس إلى السواد .

3 ـ والثالث ما تفرد به مما لا يخالف الأئمة وإن لم يعرف له قدمة ، مثل الحَيْعَلَةِ في الأذان وجعل أول الشهر يوماً يرى فيه الهلال وصلاة الكسوف بخمس ركعات وسجدتين في كل ركعة ، وهذه مذاهب الشيعة »[4] .

(1) فضائح الباطنية : ص 193 ، تحقيق عبدالرحمن بدوي ، نشر الدار القومية القاهرة 1964 .
(2) يذكر ابن الأثير في حوادث 434 هـ ما يلي : « وفي هذه السنة في رجب خرج بمصر انسان اسمه « سكين » كان يشبه الحاكم صاحب مصر ، فادعى أنه الحاكم وقد رجع بعد موته فاتبعه جميع من يعتقد رجعة الحاكم » . الكامل : (جـ 9 ص 214) .
(3) انظر ظهر الاسلام : جـ 1 ، ص 188 .
(4) أحسن التقاسيم : ص 237 ـ 338 .

وعلى رأس ذلك كله ـ الادعاء ـ على الصعيد السياسي ـ بأحقية[1] الخلافة الاسلامية وزعم الانتساب إلى النبي ﷺ عن طريق ابنته فاطمة الزهراء ، فسموا بالفاطميين .

إن هذه المزاعم قد أوجدت لدى السنة ممثلة بالخليفة العباسي وحلفائه السلاجقة حركة عنيفة للتفنيد ، فقد لجأ الخليفة العباسي إلى العلماء يستحثهم على القول بفساد النسب الفاطمي ، كما لجأ المستظهر بالله إلى الإمام الغزالي يستدعيه لتصنيف كتاب بهذا الخصوص ، وقد استجاب الغزالي فصنف كتاباً سماه « فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية »[2] ، وكان هذا الكتاب إذاً ثمرة لهذا النزاع المذهبي والسياسي بين العباسيين والفاطميين ، وقد جاء فيه : « فإن الإمامة التي ندعيها أجمع عليها أئمة العصر وعلماء الدهر ، بل جماهير الخلق وأقاليم الأرض في أقصى المشرق وفي أقصى المغرب حتى تطوق الطاعة له ـ للخليفة المستظهر بالله ـ والانقياد لأمره كل من على بسيط الأرض إلا شرذمة الباطنية ، ولو جمع قضهم وقضيضهم وصغيرهم وكبيرهم لم يبلغ عدد أهل بلدة واحدة من متبعي الامامة العباسية »[3] . وقد استهدف الغزالي من كتابه هذا إظهار فضائح الفاطميين في مذهبهم الباطني وهو أمر يتعلق بالعقيدة ، وبيان فضائل المستظهرية أي فضائل الخلافة العباسية على ما عداها وهو أمر يتعلق بالسياسة .

والغزالي إذْ يفعل ذلك إنما يستجيب لدعاوى العصر ومتطلباته السياسية ، فهو حينما قصد له أن يناضل الباطنية في عقيدتها[4] وأسسها الفلسفية فقد كان

(1) يعبر عن هذا الموقف ، الشاعر الأندلسي ابن هانىء حين يخاطب حاكم مصر الفاطمي بقوله :
« ما شئت لا ما شاءت الأقدارُ ... فاحكم فأنت الواحد القهارُ »
(2) يقول الغزالي في هذا الكتاب نفسه عن سبب تسميتهم بالباطنية « أما الباطنية فإنما لقبوا لدعواهم أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللب من القشرة » ، ص 11 .
(3) ص 173 .
(4) بالنسبة للعقيدة الدينية الباطنية ، قال عبدالقاهر البغدادي : « اعلموا أسعدكم الله أن ضرر =

أمراء السلاجقة يكافحونها من حيث السلطان السياسي .

أما الفاطميون فقد عمدوا إلى توسيع نشاطاتهم السياسية ، وذلك ببث دعاتهم في البلاد العباسية وإنشاء التنظيمات السرية ، وتنظيم الخطط للمواجهة المباشرة والعلنية ان اقتضى الأمر . ففي السنة التي ولد فيها الإمام الغزالي ، على سبيل المثال لا الحصر ، وهي 450 هـ . نجد البساسيري قائد الدعوة الفاطمية يغير على بغداد ويدخلها عنوة ، وقد رافق دخوله هذا أصناف من ألوان العنف والتقتيل والنهب ، يقول ابن الجوزي : « دخل البساسيري بغداد يوم الأحد ثامن ذي القعدة من هذه السنة - (أي 450 هـ) ومعه الرايات المصرية وكان على رأسه أعلام عليها مكتوب الإمام المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين وقد جمع العيارين وأهل الرساتيق وطمَّعهم في نهب دار الخلافة ، والناس إذ ذاك في ضر ومجاعة »[1] . وأشار العماد الأصفهاني إلى هذه الحادثة بقوله :

« كانت سنة سيئة كادت تكون لنور الله مطفئة فإنه - (أي البساسيري) - دعى إلى الداعي بمصر مصراً ، ولم يجد بمقره من دار الإمامة مقراً »[2] .

لقد كان التنافس والنزاع بين الفاطميين والعباسيين قوياً شديداً حتى امتد إلى خارج البلاد التي لا تقع تحت سلطانها المباشر مثل الحجاز ، فقد كانت خطبة مسجد مكة مثلاً تُقَامُ باسم الفاطميين أحياناً وباسم العباسيين أحياناً

الباطنية على قرى المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس ، بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر أصناف الكفر » .

(الفرق بين الفرق : ص 266 ، دار الآفاق الجديدية - بيروت 1977) .

كما أشار الغزالي إلى فساد عقيدتهم هذه إلى الحد الذي أفتى بإباحة دمهم فقال : « وإنما الواجب قتلهم وتطهير لوحة الأرض منهم ، هذا حكم الذين يحكم بكفرهم من الباطنية » . (فضائح الباطنية : ص 159) .

(1) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم : جـ 8 ، ص 192 .

(2) دولة آل سلجوق : ص 18 .

أخرى وحينما مات الخليفة القائم بأمر الله والسلطان السلجوقي ألب أرسلان ، أرسل الحاكم الفاطمي المستنصر بالله ، سنة 468 هـ ، إلى صاحب مكة مع هدايا جليلة يطلب منه أن يعيد الخطبة له ، وقد لُبِّيَتْ دعوته[1] .

وقد تمخض عن هذا النزاع المذهبي السياسي نتائج خطيرة إذ لجأ الفاطميون إلى وسيلة قاسية تمكِّنهم من إزالة أي عنصر يقف عثرة في سبيل الوصول إلى تحقيق أهدافهم وغاياتهم ، لقد استخدموا مبدأ التصفية الجسدية والاغتيال وذلك ببثهم عناصر فدائية في دار الخلافة العباسية عرفت تاريخياً باسم الحشاشين ، وقد اشتهرت هذه العناصر بالطاعة العمياء لسلطة الإمام ، لذلك اتسموا بالحكم الارهابي الصارم في قتل الأمراء والوزراء والقادة العسكريين والقضاة وسائر الموظفين المرتبطين بجهاز الدولة العباسية .

أما العماد الأصفهاني فيخبرنا عن خطر هذه الجماعة فيقول : « وقد استحكمت قواعدهم واستوثقت معاقدهم ، وأخافوا السبل ، وأجالوا على الأكابر الأجل ، وكان الواحد منهم يهجم على كبير وهو يعلم أنه يقتل فيقتله غيلة ، ولم يجد أحد من الملوك في حفظ نفسه منهم حيلة ، فصار الناس فيهم فريقين ، فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة ، ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة ، فمن عاداهم خاف من فتكهم ، ومن سالمهم نسب إلى شركهم في شركهم ، وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجبهتين ، فأول ما بدأوا بقتل الملك ، ثم اتسع الخرق وتفاقم الفتق »[2] .

ومع وسائل الصراع العنيفة هذه ، استخدم الفاطميون الفكر كوسيلة للتجريح والتفنيد والتسويغ والترويج ، كل ذلك عن طريق مذهب لهم في التأويل لنصوص القرآن تجعله يلائم أغراضهم وينطق بعصمة أئمتهم بالحق دون غيرهم . وقد عملوا جهدهم في نشر أفكارهم حتى شاعت وانتشرت حتى في

---

(1) ابن الأثير : الكامل : جـ 10 ، ص 40 .

(2) دولة آل سلجوق : ص 68 - 69 .

عاصمة الخلافة العباسية ، وتناولتها ألسنة الناس ، حتى قال الغزالي في ذلك : « وكانت قد نبغت نابغة التعليمية وشاع بين الخلق تحدثهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم »[1] .

ولم يجد خصوم الفاطميين وسيلة لدحض الأفكار الشيعية إلّا في الفكر نفسه ، فلجؤوا إليه وراحوا يقارعون الحجة بالحجة كما فعل الغزالي في كتابه « القسطاس المستقيم »،كان لهذا الصراع السياسي والطائفي في الوقت نفسه أثر - بطبيعة الحال - على عقلية الناس وسلوكهم ، حتى نجم عنه فتن عديدة ومحنٌ كثيرة لوَّنت العصر بألوان قاتمة .

كيف لا ، وقد تمكنت هذه الاتجاهات في نفسية الجمهور وترسخت ، فساده التعصبُ وضاق ذرعاً لأبسط الأسباب ، وتحسس تجاه كل صغيرة وكبيرة ، لاسيما إذا ما خيل إليه أن خطراً ما يقع في مجال عقيدته ، من هنا كثرت الصدامات وتفاقمت العلاقات بين معتنقي مختلف المذاهب . وما أكثر الصدامات التي وقعت بين جمهور الشيعة وجمهور السنة ، ففي سنة 483 هـ على سبيل المثال لا الحصر ، يذكر ابن العماد الحنبلي ما يلي : « كانت فتنة هائلة لم يسمع بمثلها بين السنة والرافضة وقتل بينهم عدد كثير ، وعجز والي البلد ، واستظهر السنة بكثرة من معهم من أعوان الخليفة ، واستكانت الشيعة وذلوا ولزموا التقية ، وأجابوا إلى أن يكتبوا على مساجد الكرخ : « خير الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر »[2] .

كما يشير ابن خلدون إلى فتنة وقعت ببغداد بين الجمهور نتيجة هذه الاتجاهات المذهبية وذلك أثناء تنصيب الخليفة القائم بأمرالله ، والتي أدت إلى إحراق أسواق بغداد وقتل بعض جباة المكس[3] .

---

(1) المنقذ من الضلال : ص 130 ، طبعة عبدالحليم محمود .
(2) شذرات الذهب : جـ 3 ، ص 367 ، مكتبة القدس ، القاهرة 1350 هـ .
(3) تاريخ ابن خلدون : جـ 4 ، ص 25 منشورات دار الكتاب اللبناني 1958 .

وقد عانى العلماء بدورهم هذا الصراع وانكووا بنار فتنه وأدى ببعضهم إلى مغادرة بلادهم وأهلهم تجنباً للمكروه الذي قد يصيبهم مثل ما وقع لإمام الحرمين الجويني وأبي القاسم القشيري صاحب الرسالة المشهورة ، إذ غادرا العراق إلى الحجاز في عهد الوزير الشيعي الكنْدُري الذي أوعز بلعن الأشعرية على منابر المساجد ، ثم عادا إلى البلاد في عهد السلطان ألب أرسلان ووزيره نظام الملك[1] .

ولم يقتصر هذا الصراع على المذهبين المتميِّزيْن : السنة والشيعة ، بل امتد إلى داخل مذاهب السنة نفسها . فقد جاء في « أحسن التقاسيم » للمقدسي قوله : « .. ويقع بسجستان عصبيات بين السمكيَّة وهم أصحاب أبي حنيفة رحمه الله وبين الصدقيَّة وهم أصحاب الشافعي رضي الله عنه يهراق فيها الدماء ويدخل بينهم السلطان .. وكذلك سمرقند وجميع البلدان قل أن تخلو من عصبيات »[2] . كما كان يقع الصدام أحياناً كثيرة بين الأشاعرة والحنابلة ، يذكر ابن الجوزي في حوادث 447 هـ قوله : « وقعت بين الحنابلة والأشاعرة فتنة عظيمة حتى تأخر الأشاعرة عن الجماعات خوفاً من الحنابلة »[3] ، وفي سنة 469 هـ كتب أبو إسحق الشيرازي ، وهو أول مدرس بالمدرسة النظامية ، رسالة إلى نظام الملك يشكو الحنابلة ويذكر ما فعلوه من الفتن ويسأله المعونة ، ثم أخذ الشريف أبو جعفر ، وهو شيخ الحنابلة إذ ذاك وجماعته يتكلمون في الشيخ أبي إسحاق ويبلغونه الأذى بألسنتهم فأمر الخليفة بجمعهم والصلح بينهم بعدما ثارت في ذلك فتنة هائلة قتل فيها نحو من عشرين قتيلاً[4] .

---

(1) أنظر : طبقات الشافعية الكبرى للسبكي : جـ ، ص 170 مطبعة عيسى البابي الحلبي 1967 .
(2) ص 336 .
(3) المنتظم : جـ 8 ، ص 163 .
(4) السبكي : طبقات الشافعية : جـ 4 ، ص 235 (مطبعة عيسى الحلبي - 1966) .

خاتمة :

لعلنا لا ننأى عن الصواب إذا قلنا ان الصراع الذي هيمن على عصر الغزالي كانت تغذيه وتحركه النزعتان المتمثلتان في الاتجاه الشيعي الذي بلغ ذروته في الدولة الفاطمية ، والاتجاه السني الذي مثلته الدولة العباسية . أما ما عدا ذلك فهي نزاعات مذهبية محدودة الأفق ، وإن كانت قد انتشرت واستحكمت فبتأثير ذلك النزاع الرئيسي وبفضله إن صح التعبير ، ولعل زكي مبارك محق حين يقول : « . . إن أكثر ما يحتل رؤوس المسلمين من الأفكار والعقائد ليس إلا أثراً للدعوات المتعددة التي قام بها العباسيون في الشرق والفاطميون في الغرب »[1] .

والسبب في ذلك أن صراعهم هذا لم يكن صراعاً دينياً كما يبدو لأول وهلة وإنما كان صراعاً سياسياً من أجل الملك، ذلك أنه من المتعسر أن نجد أمة تدين بالاسلام تحارب أختها باسم السياسة والملك في دعوة صريحة ، لهذا لجأت كل واحدة إلى خص نفسها بالهداية والرشاد ، ورمي غيرها بالضلالة والمروق والغواية ، وكانت الجماهير وقوداً لبناء الفتن الناجمة عن هذا ، في مصر والشام والعراق وخراسان وغيرها من ممالك المسلمين .

أما على صعيد الفكر والثقافة فإن الأمر يختلف تمام الاختلاف ، إذ كان على كل فريق أن يتسلح أمام الخصم ، فأدى بهم هذا إلى التنافس ، تنافساً شاملاً حتى امتد إلى وسائل المعرفة ، فأنشئت دور العلم كالمساجد والمدارس والمكتبات وأنفق على طلاب العلم والمعرفة إنفاقاً حسناً ، وراح كل فريق يشجع الأدباء ويجزل لهم العطاء للاشادة بفضله وشمائله ، ونبل نسبه، كما استغلت الشعراء للدعاية والترويج ، واستخدم القراء والمفسرون والفقهاء والمحدثون للتسويغ ، واستعين بالمفكرين للتفنيد والتجريح حتى راح كل فريق يلجأ إلى

(1) الأخلاق عند الغزالي : ص 14 مطابع دار الكتاب العربي .

الحكمة والحكماء يستمد صحة الرأي وصوابه، ويدحض حجج الخصم ويفند آراءه لأن الحكمة أو الفلسفة سلاح فعال يتسلح به في وجه الخصم . ولعل هذا الواقع أتاح للفلسفة أن تشاع بين الناس فتناولوها قبولاً وإعجاباً أو رفضاً وازدراء . .

الوصف الاقتصادي

أولاً ـ نظام الملكية :

إن الأساس السائد لنظام الملكية في العصر الوسيط هو الاقطاع[1] ، وهو الذي بنى عليه السلاجقة ـ بطبيعة الحال ـ سياسة الملكية ونظامها في البلاد والاقطاع في الوقع هو : « ولاية على منطقة وللمقطع أو الأمير السلطة التامة في إقطاعه أن يعطي إقطاعات بدوره »[2] . وقد انسجم هذا النظام مع عقلية السلاجقة الذين يعتبرون أنفسهم زعماء قبائلهم ، ويرون أن حكمهم يمتد حيث ارتحل قومهم ، فليس مرتبطاً أو محدداً بمسافة معينة من الأرض ، ثم أن ما لحق بالأراضي التي أصبحت تحت سلطانهم من تخريب وإفساد بسبب حروبهم مع البويهيين جعلهم يلجؤون إلى هذا النظام لاحياء هذه الأر ض واستغلالها، فوزعت على شكل إقطاعات مقابل الخدمة المطلوبة التي يؤديها المقطع ـ وغالباً ما تكون عسكرية ، وكان نظام الملك[3] ـ وزير السلاجقة ـ قد أصدر مراسيم هذا النظام ووجهه بتعليماته ، وقد : « تولى الوزارة ، والملك قد اختل نظامه ،

(1) في اللغة : أقطعه قطيعة : أعطاه طائفة من أرض الخراج : (مختار الصحاح) ، مادة « قطع » .

(2) د. عبدالعزيز الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي : ص 96 .

(3) قال السبكي : « يقال : أن نظام الملك أول من فرق الاقطاعات على الجند ، ولم يكن عادة الخلفاء والسلاطين من لدن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلا أن الأموال كلها تجبى إلى الديوان ثم تفرق العطايا على الأمراء والأجناد على حسب المقرر لهم ، فلما اتسعت مملكة نظام الملك رأى أن يسلم إلى كل مقطع قرية أو أكثر أو أقل على قيد إقطاعه . . فَعَلَ ذلك فكان سبب عمارة البلاد وكثرة الغلات وتناقلته الملوك بعده واستمرت إلى اليوم في بلاد الإسلام » (طبقات الشافعية : جـ 4 ، ص 317 ، مطبعة عيسى الحلبي 1966) .